

المرحلة الرابعة / النقد الأدبي الحديث/ الدراسات الصباحية

المحاضرة (4) مبادئ في النقد العربي الموروث

لا نستطيع أن نستكمل معرفتنا بالنقد الحديث من دون اطلالة على النقد العربي القديم للتوافر على ميدان من أخصب ميادينه وممارساته النقدية في مفردة مهمة هي الموازنة التي لا تنفك تقترن النقد، الذي يضم العلاقة بين الأديب والناقد فالأديب حر في عمله الفني. أما الناقد فيرتبط بدواعي الموضوعية وبقوانين النقد ومعاييرها في الحكم على النتاج الأدبي . وقد يكون الناقد نفسه مبدعا وقد لا يكون أي هو مجرد ناقد كما يلاحظ لدى العديد من النقاد في تاريخ النقد العربي وقد يلاحظ أحيانا اختلاف الأحكام النقدية حول العمل الأدبي والأمور ذلك يعود إلى اختلاف درجات الأذواق والأحاسيس بين النقاد ولكن بالرغم من ذلك يبقى هناك حد مشترك بين النقاد لا يمكن الخروج عنه .

ولا بد للنقد الأدبي أن يكون منخرطا في سياق العلم أكثر من الأدب الذي ينتج العبارة الجميلة والنص الفائق وعلى النقد أن يحيط بالأسس التي تكشف عن جمال تلك العبارة البليغة وذلك النص المميز حتى لو لم يمتلك الناقد القدرة على التحليق في الخيال المبدع للأديب .

نضوج الشعر الجاهلي :

قطع الشعر الجاهلي مراحل طويلة من النضوج حتى بلغ ذلك الإتقان الذي أصبح عليه في أواخر العصر الجاهلي وكذلك الشأن بالنسبة للنقد ، فقد ظهر مع بداية الشعور وما وصل إلينا من شواهد نقدية لا يدل على البداية الأولى لهذا النشاط وما بين أيدينا من أحكام نقدية إنما تعود إلى أواخر العصر الجاهلي كذلك بعد أن قطع خطوات ليعكس مظاهره فما كان يجري فيما يسمى «بالأسواق» تارة التي يجتمع فيها الناس من قبائل عدة فيتذاكر الناس فيها الشعر ويلتقي فيها الشعراء ومن صور النقد الجاهلي ما كان يجري في بلاط ملوك الحيرة والغساسنة حيث يلتقي الأمراء والأعيان بالشعراء فيستمع فيها الحضور إلى ما قال الشاعر في مدح الممدوح فيعقبه جدال حول المحاسن والمساوي ، وما أورده الشاعر من معاني تليق بمقام الممدوح الخ ، فهذه النماذج هي أولى الصور النقدية التي وصلتنا من العصر الجاهلي أما قبلها فمغمور وغير معروف لم يصل إلينا منه شيء يذكر.

وثمة محطات تكشف عن ممارسة نقدية ابرزها ما نقل عما كان يحصل في سوق عكاظ التي كانت سوقا تجارية وموعدا للخطباء والشعراء لتمثل بيئة للأدب ونقده يلتقي فيها الشعراء كل عام ليتنافسوا ويعرضوا ما انتجوه أشعار، ومما نقل في كتب الأدب أن الشاعر النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء ، من جلد في ناحية من السوق فيأتيه الشعراء ، ليعرضوا عليه أشعارهم ومما يروى في ذلك أن الأعشى أنشد النابغة مرة شعرا ثم أنشده حسان بن ثابت ثم شعراء آخرون ثم أنشدته الخنساء قصيدتها في رثاء صخر أخيها التي قالت فيها :

وان صخرًا لتأتم الهداة به *** كأنه علم في رأسه نار

فقال النابغة: لولا أن أبا بصير " يعني الأعشى " أنشدني من قبل لقلت أنك اشعر الأئس والجن .

وقد أعاب العرب كذلك على النابغة بعض الإقواء الذي لوحظ في شعره في قوله:

امن آل مية رائح أو مغتدي *** عجلان زارزاد ، وغير مزود.

زعم البوارح أن رحلتنا غدا *** وبذاك حدثنا الغداف الأسود.

حيث اختلفت حركة الروي مما يؤدي إلى خلل موسيقي وقد فطن النابغة إلى ما وقع فيه ولم يعد إلى ذلك في شعره .

وأورد حماد الراوية أن شعراء القبائل كانوا يعرضون شعرهم على قريش فما قبلته كان مقبولا وما ردته كان مردودا، وقد قدم عليهم مرة علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدة يقول فيها : هل ما علمت وما استودعت مكتوم؟ فقالوا: هذا سمط الدهر أي رائح وسيبقى في ذاكرة التاريخ .

وقد سمع طرفة بن العبد المتلمس مرة ينشد بيته :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكرم .

فقال طرفة :استنوق الجمل لان الصيعرية سمة في عنق الناقة لافي عنق البعير .

وتكشف لنا هذه الشواهد أن النقد الجاهلي كان يعنى تارة بملاحظة الصياغة أي الشكل وتارة أخرى بملاحظة المعاني من حيث الصحة والخطأ ومن حيث الانسجام المطابق للسليقة العربية فقد ذمّ الإقواء في شعر النابغة لأنه اخل بالانسجام وسلامة الوزن وحسن الصياغة لان الشعر عند الجاهليين هو حسن الصياغة وحسن الفكرة والمعنى وهو نظم محكم ومعنى مقبول وإلا ما كان شعرا فالمعنى الذي أورده المثلث في بيته الشعري إنما هو معنى فاسد مرفوض لأنه اسند صفة لغير ما تسند إليه .

وتعد تلك القيم من أهم المجالات التي جال فيها النقد في العصر الجاهلي التي تجنح إلى الحكم على الشعر من حيث المعنى تارة والمبنى تارة أخرى والتنويه بمكانة الشعراء وقدراتهم أما الذهاب إلى البحث مثلا في طريقة نظم الشاعر أو فحص مذهبه أو البحث في صلة شعره بالحياة الاجتماعية فذلك كان مازال غائبا لم يلتفت إليه الناقد إذ كان يأخذ الكلام منقطعا عن كل مؤثر اجتماعي خارجي وحتى عن بقية شعر الشاعر فهو نقد جزئي انطباعي أساسه السليقة والانطباع الذاتي .

روي أن حسان بن ثابت سئل عن بيت القصيد في قصيدته يفتخر فيها فأجاب بأنه الذي يقول فيه :

لنا الجففات الغريلمعن بالضحى *** وأسيفنا يقطرن من نجدة دما .

فأعاب عليه النابغة بأنه افتخر ولم يحسن الافتخار لأنه أورد كلمات غيرها اقرب وأوسع مفهوما ، فقد ترك الجفان والبيض والإشراف والجريان واستعمل الجففات والغرواللمعان وهي دون سابقتها فخرا .

فالببت فيه امتحان لقدرات الشاعر على أدراك اللفظة الصحيحة في مكانها الصحيح وتؤدي المعنى بشكل أقوى حيث علق النابغة على محتوى البيت مخاطبا حسانا :

أقلت أسيفك وجعلت جفانك قلة ويعني بذلك أن على الشاعر أن يكون عليما باللغة ويحسن وضع المفردة لما تدل عليه والربط بين الدال والمدلول .

نقد الموازنة:

لا تعد الموازنة عملية عقلية وقياسية فحسب . وانما هي عملية ذوقية وجمالية أيضا . لأن الناقد في ملاحظته للأعمال الأدبية المشتركة والمتشابهة يعتمد على ذوقه الأدبي في امتلاك القدرة على الحكم بين عمليين أدبيين .

وهذا يعني أن الموازنة عملية نقدية معقدة تقوم على الملاحظة والفهم والإدراك ثم الحكم، الناتج عن قوة الملاحظة للتمييز بين العناصر المتشابهة والمختلفة في الموضوع الواحد والتعبير المشترك للوصول إلى الحكم النهائي .

وتعد الموازنة نشاطا عربيا أصيلا له إرهاصات وامتداد في المورث الأدبي وفي التراث النقدي بالخصوص. وقد ظهر في شكل بداية ساذجة يتميز بطابع العفوية عمادها الذوق الفني الفطري التأثري الذي لا يستند على قواعد موضوعية معينة . والشواهد النقدية في التراث النقدي العربي تثبت أن عملية الموازنة والمفاضلة عملية قديمة قدم الشعر العربي حيث تعود بدايتها إلى العصر الجاهلي . إذ كثيرا ما كان العرب القدامى يقومون بهذا النشاط عند الحكم على الشاعر أو على الشعر أو عند التنويه بصاحبه لما في شعره من عناصر الجودة سواء في الصياغة أو في المضمون . ومما ذيع في كتب الأدب ما كان يجري في سوق عكاظ . الذي سبق الإشارة إليه . وما كان يقوم به النابغة في هذا المجال . حيث كانت تضرب له فيه قبة حمراء من جلد فيأتيه الشعراء يعرضون عليه أشعارهم . وكثيرا ما وازن القدماء بين القصائد الشعرية وبين الشعراء واستخلصوا في الكثير من الأحيان بعض أوجه التشابه والاختلاف . وقد نوهوا بالبعض بما كان لهم من براعة و إمكانات خاصة . ومن خلال عملية المفاضلة هذه أعجبوا ببعض القصائد واعتبروها درة أو يتيمة . ولاحظوا بعض الخصائص التي تميز بها شاعر عن آخر . فقد لقبو النمر بن تولب بالكيس لحسن شعره وسموا طفيل الغنوي: طفيل الخيل لمهارته وبراعته في وصفه لها . وسموا قصيدة سويد بن أبي كاهل بالقصيدة اليتيمة التي تقول فيها:

بسطت ربيعة الحبل لنا *** فوصلنا الحبل منها ما اتسع .

وكانت موازنتهم تقوم أساسا على ملاحظة حسن الصياغة وحسن الفكرة : فهل المعنى مقبول . أو غير مقبول . وهل النظم مقبول أو غير مقبول . وإلى أي مدى تحقق ذلك الانسجام والصل المطابق للسليقة الغربية.

ومن مظاهر الموازنة عندهم ما ذكر عن أم جندب حين تنازع علقمة الفحل وامرؤ القيس . وزعم كل من هما أنه الأشعر .

ومن الشواهد النقدية ما ورد في قصة «أم جندب» حين تنازعا علقمة الفحل وامرؤ القيس وادعى كلاهما انه اشعر فاحتكما إليها فقالت لهما: قولوا شعرا على روي واحد وقافية واحدة تصفان فيه الخيل ففعلا فانشد بها زوجها امرؤ القيس قائلا:

فللسوط ألهوب وللحاق درة *** وللزجر منه وقع احوج منع

وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه *** يمر كمر الرائح المتحلب

فقضيت أم جندب لعلقمة على امرئ القيس، لان فرس امرئ القيس يبدو كيلا بليدا لم يدرك الطريدة إلا بالضرب والزجر والصياح خلاف فرس علقمة الذي انطلق بسرعة الريح ولم يحتج إلى الإثارة فهو ابرع وسرعته طبيعية أصيلة ويلاحظ أن أم جندب، اعتمدت في حكمها على بعض القواعد وهي:

وحدة الروي والقافية ووحدة الغرض حتى تبدو بحق براعة كل شاعر في إطار الشروط المحددة، ونستنتج من هذا أن النقد الجاهلي لم يكن يعتمد دائما على مجرد السليقة والفطرة بل كانت له أحيانا شبه أصول وقواعد يعتمد عليها.

ومن صور الموازنة كذلك ما قام به ربعة بن حذار الأسدي في حكمه على شعر شعراء تميم الذين كانوا في مجلس شراب. واختلفوا إذ زعم كل واحد منهم أنه اشعر. فاحتكموا إليه. فقرأ كل واحد منهم بعض شعره عليه. وبعد ان وازن بين ما سمع من شعر. أخذ يصف شعر كل شاعر وما يتميز به. فقال: اما عمرو فشعره برود يمانية تطوي وتنشر. واما انت يا زبرقان فكأنك جل حتى جزروا قد نحرت فاخذ من اطايبيها وخلطة بغير ذلك. ولا ما انت يا عبدة فشعرك كمزادة احكم خرزها فليس يقطر منها شيء.

ويكشف ذلك عن أن احكام الناقد مستمدة من الواقع فكما ان لحم الشاة تتباين درجات جودته وحسن مذاقه فكذلك تفاوتت جودة شعر الزبرقان حيث فيه الجيد والرديء. وقد شبه الناقد شعر عبدة بن الطيب بالمزادة التي احكم خرزها دلالة على قوة بناء شكل شعره وصياغته إذ لا توجد فيه اللفظة الزائدة او العبارة المهلهلة أي أن أسلوب شعره محكم رصين.

ولهذا النشاط حضور مستمر واسع في الحركة النقدية العربية حيث ازدادت أهمية بعد العصر الجاهلي وتوسع خاصة عند شعراء النقائض بسبب اشتداد جزيرة النزعة العصبية القبلية. ورجوعها من جديد بعد أن خمدت في صدر الإسلام. بسبب اشتغال الناس بالفتوحات. وما يلاحظ في موروثنا النقدي أن أكثر النقاد العرب القدماء كانوا يقرون باستقلالية البيت الشعري الواحد. لذلك كانوا ينشدون المتعة الفنية في كل بيته في معزل عن غيره من أبيات القصيدة. وان البيت الجيد عندهم هو ما كان موجزا يسهل حفظه ويرسخ معناه في العقل والقلب. ولذلك نجد عندهم ما يسمى ببيت القصيد. أو واسطة العقد. وأغزل بيت. وأهجي بيت. وأمدح بيت. ووصفهم الشاعر فلان بأنه أشعر الشعراء.

تعريف لفظ الموازنة في اللغة والاصطلاح

مفهوم الموازنة:

لغةً: وزن: الْوَزْنُ: رَمَزُ الثَّقَلِ وَالْخِفَّةِ. قال الليث: الْوَزْنُ ثَقُلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ مِثْلَهُ كَأَوْزَانِ الدَّرَاهِمِ، وَمِثْلُهُ الرَّزْنُ، وَزَنَ الشَّيْءَ وَزْنًا وَزَنَةً. قال سيبويه: اتَّزَنَ يَكُونُ عَلَى الْإِتِّخَاذِ وَعَلَى الْمِطَاوَعَةِ، وَإِنَّهُ لَحَسَنُ الْوِزْنَةِ أَيْ الْوَزْنِ. قال أبو منصور: ورأيت العرب يسمون الْأَوْزَانَ التي يُوزَنُ بها التمر وغيره الْمَسَوَاةَ من الحجارة والحديد الْمَوَازِينَ، واحدها مِيزَانٌ، وهي الْمِثَاقِيلُ واحدها مِثْقَالٌ، ويقال للآلة التي يُوزَنُ بها الْأَشْيَاءَ مِيزَانًا أيضًا؛ قال الله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ؛ يريد نَضَعُ الْمِيزَانَ الْقِسْطَ. ووازنتُ بين الشيئين مُوَازَنَةً وَوِزَانًا، وهذا يُوازِنُ هذا إذا كان على زَنْتِهِ أو كان مُحَادِيَةً.

الموازنة اصطلاحاً:

يمكن تعريف الموازنة بأنها دراسة يتم فيها الحكم التقويمي الجمالي بين الشعراء، وغالباً ما يتبع الذوق الفردي، ويقوم به كل القراء، ويتحدث غير كتاب، عن الأحكام الجمالية التقويمية بين الشعراء، والتي قام بها أعلام لا يجمعون صفات الناقد، كنماذج التي أوردناها سلفاً وابرزها المحاكمة التي أجراها النابغة بين الخنساء وحسان بن ثابت. وما روي عن قصة أم جندب، وموازنتها بين امرئ القيس وعلقمة في وصف الفرس، واجتماع الشعراء في خيمة النابغة الذبياني في سوق عكاظ، ينشدونه أشعارهم، ومن أنه كان الحكم الأدبي بين شعراء عكاظ، دلنا ذلك على أن الموازنة كانت أساساً للمفاضلة منذ الجاهلية، وكانت مدرسة الحطيئة وكعب بن زهير مقابلة لمدرسة الشماخ وأخيه مزرد، وفي صدر الإسلام كانت الموازنة بين القرآن الكريم وبين كلام العرب، وبين شعراء الرسول وخطبائه من ناحية وبين شعراء الوفود العربية وخطبائهم من ناحية أخرى.

وكان العصر الأموي زاهراً بنماذج الموازنة بين الفحول من الغزليين والسياسيين من الشعراء، وبين الخطباء والأدباء جميعاً، فخلّف لنا ثروة نقدية قيمة على الرغم من تأثرها بالعصبية والأهواء والأمزجة.

وقد أذكت نار الموازنات تلك، قضايا ذات أهمية في النقد، منها ظهور شعراء النقائض وظهور الشعراء المجديدين، وبزوغ المعارك النقدية، مثل المعركة التي دارت حول إرجاع الجودة للفظ أم للمعنى، وبين أنصار الطبع والصنعة، وأبين أصحاب عمود الشعر ومذهب البديع، وتُعَدُّ الموازنة، وهي جزء من منهج المفاضلة بين الشعراء، الشكل التطبيقي للنقد الذي يهدف إلى التقويم والحكم على أعمال النقاد، وما

يُميّز هذه القضية أنّ أكثر النقاد في التاريخ العربي قد وازنوا بين الشعراء، وهذا مما أدّى بموازنتهم التي كانت تُعتمد معايير ذوقية؛ لأنّ تذهب باتجاه التعليل.

وفي العصر العباسي بدأ هذا الفن النقدي نشيطاً بين بشّار بن برد ومروان بن أبي حفصة، وبين أبي تمام والبحتري، وبين المتنبي وخصومه، وقد انسحب على النثر أيضاً، فكانت الموازنة بين الخطباء والكتاب وبين اللفظ والمعنى، وبين الفكرة والفكرة، والخيال والخيال وفي كلّ ما هو صالح لهذا الضّرب .

ويعد محمد بن سلام الجمحي من أسبق مَنْ عرضوا للموازنة في كتابه "طبقات فحول الشعراء"، فإنّه جعل أولئك الشعراء طبقات قام على الموازنة الفنية.

وظهرت الموازنة لدى ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء" ضمن اختياره لكلّ شاعر ما يراه جيداً وفي تقسيمه الشعر أقساماً فنية أربعة، والشعراء إلى مطبوعين ومتكلفين وفي غير ذلك، وكان الصولي في (أخبار أبي تمام) مصنفاً بين القدماء والمحدثين، حين عزّف لكلّ فريق تجويده في وصف بيئته التي شهدها دون الأخرى التي يصفها تقليداً، واستشهد لذلك بقول أبي نواس:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثم ساق في كتابه أمثلة للموازنة بين أبي تمام والبحتري.

وحين نصل النصف الثاني من القرن الرابع لا نجد أحداً من النقاد يتقدّم للفصل في هذه المعركة فصلاً يقوم على الموازنة الدقيقة بين فني الشعارين، وبيان منزعهما في الشعر بياناً مضبوطاً يؤسس على الفحص والامتحان، حتى ظهور الأمدى الذي يبرع في ويضع الموازين التي يقيس بها عمل شاعرين، مثلما اتجاهاين متضادين في الشعر آنذاك فيعقد في كتابه (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري) محاكمة فنية لشعرهما، وهو أول كتاب تصدى للمقارنة بين شاعرين؛ لبيان الاختلافات الجوهرية بينهما، وما يمتاز به كلّ منهما في صفاته وخصائصه، وهي موازنة منهجية في ناحيتها المختلفتين: ناحية المفاضلة وناحية استنباط الخصائص، والناظر في تاريخ النقد العربي، يرى إنّها الوحيدة من نوعها إذ أنّ المؤلفين اللاحقين قد اكتفوا بأحد أمور:

1- نقل آراء السابقين في المفاضلة بين الشعراء، وهذا ما نجده في العمدة لابن رشيق القيرواني .

2- قديم موازنة وصفية عامة كتلك التي يوردها ابن الأثير عندما يوازن بين أبي تمام والبحتري والمتنبي، ويحدد فيها خصائص كلّ منهم.

3 - وضع مقاييس للحكم على جودة الشعر أورداه كما فعل عبد القاهر الجرجاني في كتابه "الوساطة".

وقد أتم ابن رشيق في كتابه العمدة آراء سابقيه ممّا يتصل بالموازنة، فأورد كثيراً من آرائهم، كقول أبي عمرو بن العلاء في المولدين: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم، وليس النمط واحداً. ومثله في ذلك الأصمعي وابن الأعرابي فكلّ واحد يذهب في أهل عصره هذا المذهب، ثم يورد لابن قتيبة كلاماً يشبه ما مرّ للصولي، وما قيل من أنّ علي بن أبي طالب كان يفضل امرئ القيس على الشعراء وينتهي الأمر إلى ابن الأثير في المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر فيوازن بين أبي تمام والمتنبي والبحتري ويفضلهم على جميع شعراء العربية إلى عهده وينتهي من الموازنة إلى أنّ الأولين حكيمان والشاعر هو البحتري.

مميزات ناقد الموازنة

على ناقد الموازنة أن يتوافر على كفاية فنية، ونزاهة أدبية، وخطة علمية، ويمكن اجمال مميزاته على النحو الآتي :

1- أن يكون ملمّاً بسيرة كلّ ممن يوازن بينهم، فلكلّ حياته الخاصة التي طبعت آثاره طابعاً خاصاً إذا عرفها الناقد استطاع أن يفسر بها ما يميزه عن زميله أو يعرف سبب فضله عليه في كلّ فنونه أو في بعضها.

2- أن يتبين النواحي التي اشترك فيها الأدباء أو الآثار الأدبية التي اختلفوا فيها، ثم ينتقل إلى الأفكار والأخيلة والأساليب، وإلى الموضوعات لتكون موازنته عامة.

3- أن يرصد مبتكرات كلّ واحد أو سرقاته وكيف أخذها ومقدار ما يفرقه عن زميله، ويظهر ذلك جلياً إذا اتّحدت الموضوعات والفنون الأدبية. كما يتّضح في الموازنة بين العصور الأدبية والتاريخية، فلكلّ خواصه التي تميزه وإن كانت كلّها قائمة على الأدب وفنونه ورجاله، أو على العوامل السياسية والاجتماعية التي تحيل الحياة وتدفع الشعوب في طريق الحياة أو الممات.

وأما عن الأوضاع اللازمة لعقد هذه الموازنة فهي كثيرة ومتنوعة، ولكّنها جميعاً تعود إلى أصل واحد؛ هو أن طرفي الموازنة لا بد أن يكون بينهم اتفاق من ناحية واختلاف من ناحية أخرى، فالأشياء المتفقة في كلّ شيء-على فرض وجودها-لا معنى للموازنة بينها إذ هي شيء واحد مكرر الصورة، والأشياء المختلفة في كلّ شيء-على فرض وجودها-لا معنى للموازنة بينها كذلك.